

الفصل الثالث

التدافع

- التدافع في اللغة والتنزيل .
- المتدافعون .
- فيم التدافع ؟
- عالمية الإسلام .
- التدافع بين عالمية الإسلام والعولمة البشرية .
- دوائر التدافع :
- أولاً : التدافع في الدائرة المحدودة .
- ما عوامل الحسم في هذا التدافع ؟
- ثانياً : التدافع في الدائرة الشاملة (أو العامة) :
- التدافع الرسالي الشرقي :
- الأول : التدافع في العهد المكي .
- الثاني : التدافع في العهد المدني .
- السنن وحسم التدافع في العهد النبوي .
- أولاً : أعمال المشركين وأهل الكتاب التي عاكسوا أو خالفوا فيها اتجاه السنن .
- ثانياً : أعمال المؤمنين التي سايروا فيها اتجاه السنن .

- النتيجة النهائية :

أولاً : سنّة الله - تعالى - في اندحار الكافرين .

ثانياً : سنّة الله - تعالى - في نصر المؤمنين .

- التدافع المعاصر بين عالمية الإسلام والعولمة :

أولاً : واقع المسلمين على ضوء شعب الإيمان وموجات العولمة .

ثانياً : واقع أعداء الإسلام على ضوء شعب الكفر وموجات العولمة :

١ - التدافع ودور أوروبا الموحدة .

٢ - التدافع ودور حلف الأطلسي .

٣ - التدافع واستراتيجية الهيمنة الأمريكية .

٤ - التدافع ودور التكتل الجديد .

- التدافع بين عالمية الإسلام والعولمة المعاصرة إلى أين ؟

- المشروع الإسلامي ضد العولمة في سياق التدافع .

- اقتراحات قدمت لمواجهة العولمة المعاصرة .

- اقتراح مشروع متكامل للعمل المؤسسي الإسلامي لمداخلة ومواجهة العولمة العصرية .

- التحصن الذاتي ضد العولمة .

- التدافع مع العولمة من خلال الكتب المنشورة .

- النصر المبين للإسلام عاقبة تدافعه مع العولمة .

التدافع

أقصد به تدافع أصحاب العقائد فيما بينهم، وتصارعهم على إثبات ذواتهم وتحصيل مصالحهم، إنه تدافع واسع عام يشمل الأفراد والجماعات والقبائل والأحزاب والشركات والمؤسسات والدول والشعوب والتحالفات والتكتلات، فهو تدافع عام وتصارع شامل يغلف البشرية بأسرها.

التدافع في اللغة:

إن كلمة التدافع مشتقة من «الدفع»، ومعناها: تنحية الشيء وإزالته بقوة، ودَفَعَ عنه مدافعة ودفاعاً: أي حامى عنه وانتصر له، وتدافع القوم: أي دَفَعَ بعضهم بعضاً^(١).

التدافع في التنزيل:

جاءت لفظة «الدفع» في القرآن الكريم ثلاث مرات بالمعنى الذي نريد مناقشته في هذا الفصل.

المرّة الأولى: في قوله - تعالى -: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

والمعنى أن الله - تعالى - قد جرت سنته بأن بقاء إعمار الأرض وعدم عموم الفساد فيها ماض بإعمال «سنة التدافع»، وأن جريان هذه السنة على هذا النسق هو فضل محض من الله - تعالى - على العالمين؛ أي على العالم؛ أي على من ذكرنا في أصناف البشر.

المرّة الثانية: قوله - تعالى -: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى

(١) المعجم الوجيز، إصدار مجمع اللغة العربية، ص ٢٣٠، مادة (دفع).

نَصَرَهُمْ لَقْدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ [الحج: ٣٩ - ٤٠].

قال ابن كثير - رحمه الله -: «أي لولا أنه يدفع عن قوم بقوم؛ ويكشف شر أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب؛ لفسدت الأرض، وأهلك القوي الضعيف»؛ أي لولا ذلك: «لهدمت صوامع الرهبان، وبيع النصارى، وصلوات اليهود، وهي كنائسهم، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيراً»؛ قاله ابن جرير - رحمه الله -.

قال بعض العلماء: «هذا ترقُّ من الأقل إلى الأكثر إلى أن ينتهي إلى المساجد، وهي أكثر عماراً وأكثر عبادة، وهم ذوو القصد الصحيح»^(١).

وقال سيد قطب - رحمه الله -: «لقد كادت الحياة كلها تأسن وتتغن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، ولولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة؛ لتنتلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع، فتتنفض عنها الكسل والخمول، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة، وتظل أبداً يقظة عاملة..»^(٢).

وقال أيضاً بعد أن ذكر معاني الصوامع والبيع والصلوات والمساجد: «وهي كلها معرضة للهدم؛ على قداستها وتخصيصها لعبادة الله، لا ينفع لها في نظر الباطل أن اسم الله يُذكر فيها، ولا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض، أي دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرمتها، ويعتدون على أهلها، فالباطل متبجح لا يكف ولا يقف عن العدوان إلا أن يُدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول، ولا يكفي الحق أنه الحق ليقف عدوان الباطل عليه، بل لا بد من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٥ / ٤٣٥، ٤٣٦).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١ / ٢٧٠).

القوة تحميه وتدافع عنه، وهي قاعدة كلية لا تتبدل ما دام الإنسان هو الإنسان»^(١).

المرّة الثالثة: قوله - تعالى -: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]، تبين هذه الآية أن منهجية الدفع النبوي لا تنبع من الهوى أو المصلحة الشخصية؛ بل هي من المفاضلة بين الخيارات الحسنة للدفع، ثم اختيار أفضلها في الوسائل والنتائج المتوقعة منها، ثم اعتمادها عملياً في واقع المدافعة.

المتدافعون:

هؤلاء الذين يتصارعون ويتقاتلون، أي يتدافعون، من هم؟
لو أردنا الإجابة عن هذا السؤال لأخذ ذلك منا مجلدات من الكتابة ولا ولن تنتهي، ولكن نريد أن نقصر حديثنا الآن على التدافع بين فئتين رئيسيتين:

الفئة الأولى: المسلمون.

الفئة الثانية: أعداء الإسلام.

إن السلاح الحقيقي للفئة الأولى (المسلمون) هو توجيه تدافعهم مع أعداء الإسلام وفق منظور السنن الربانية، وإن السلاح الحقيقي للفئة الثانية (أعداء الإسلام) هو توجيه تدافعهم مع المسلمين وفق منظور العولمة.

فأصل المدافعة مركّب من قسمين:

الأول: مدافعة العولمة للسنن (وهو في جله تدافع العقائد).

الثاني: المدافعة بين من سار وفق منظور السنن وبين من سار وفق منظور العولمة (وهو تدافع المقاصد والوسائل).

(١) المصدر السابق، (٤ / ٢٤٢٥).

فيم التدافع؟

نريد أن نقصر حديثنا على التدافع في الأمور الآتية :

١ - العقائد .

٢ - المقاصد .

٣ - الوسائل .

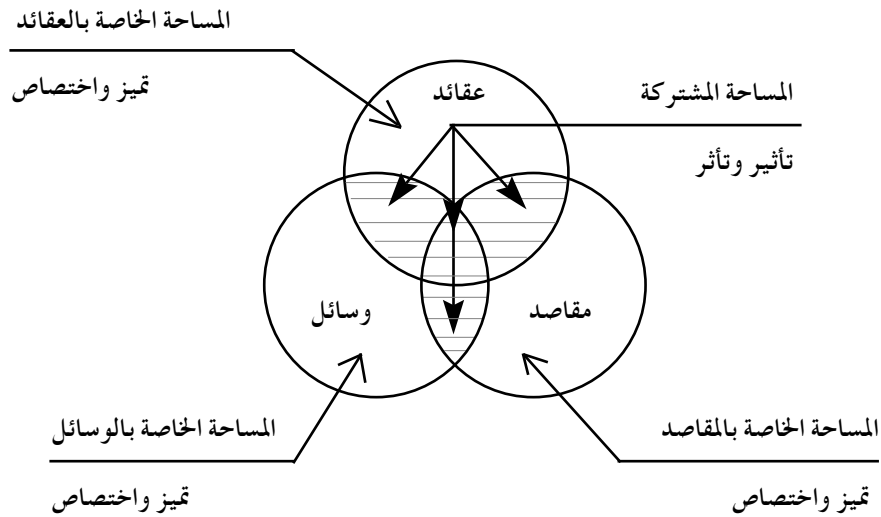
لكل واحدة من هذه العناصر ثلاث مساحات :

مساحة خاصة بها ، ومساحتان مشتركتان أو متداخلتان مع العنصرين الآخرين .

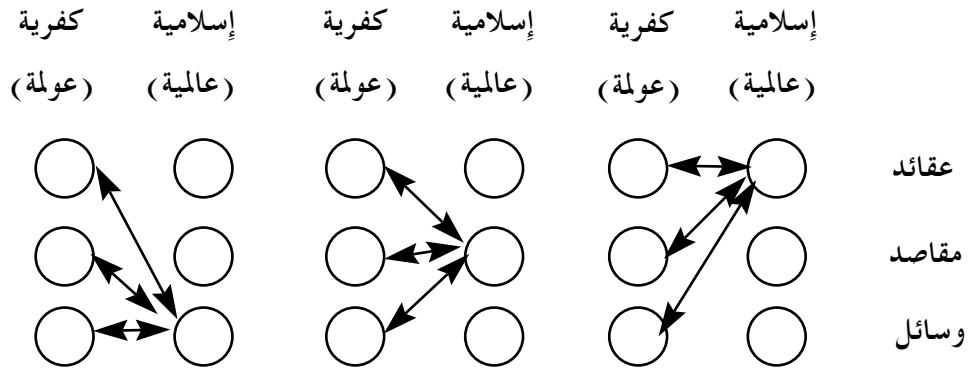
فأما المساحة الخاصة بها فتعني : التميز والاختصاص .

وأما المساحتان المشتركتان فتعنيان : التأثير والتأثر .

الشكل أدناه يوضح المراد :



فإذا أردنا تفصيل هذا الشكل العام وإرجاعه إلى مكوناته؛ فإننا سنحصل على الشكل الآتي:



وبناءً عليه؛ فإننا سنحصل على تسعة أنواع من التدافع مقسمة إلى تسع مراتب؛ هي (بحسب مراتبها من الأعلى إلى الأدنى):

- ١ - التدافع بين: العقيدة الإسلامية والعقائد الكفرية.
- ٢ - التدافع بين: العقيدة الإسلامية والمقاصد الكفرية.
- ٣ - التدافع بين: العقيدة الإسلامية والوسائل الكفرية.
- ٤ - التدافع بين: المقاصد الإسلامية والعقائد الكفرية.
- ٥ - التدافع بين: المقاصد الإسلامية والمقاصد الكفرية.
- ٦ - التدافع بين: المقاصد الإسلامية والوسائل الكفرية.
- ٧ - التدافع بين: الوسائل الإسلامية والعقائد الكفرية.
- ٨ - التدافع بين: الوسائل الإسلامية والمقاصد الكفرية.
- ٩ - التدافع بين: الوسائل الإسلامية والوسائل الكفرية.

إن العنوان الرئيس الذي ينتظم أنواع التدافع التسعة هو «التدافع بين عالمية

الإسلام وعوالة الكفر»، وذلك على مستوى العقائد والمقاصد والوسائل .
 إن كل نوع من أنواع التدافع المذكورة بحاجة إلى بحث أو أبحاث منفصلة
 (تصلح أن يقدم في كل منها رسالة دكتوراه) ؛ لذا فإنني في هذا البحث المقتضب
 سأمر بإلمامة سريعة على هذه التدافعات أو بعضها . ولكن قبل التنزه على ساحل
 هذا البحر الزاخر لا بد من بيان المعنى المختصر لعالمية الإسلام ؛ باعتبار أنني ذكرته
 في مقابل عوالة الكفر .

عالمية الإسلام:

من المعلوم أنه لا يوجد لدينا في الإسلام مصطلح بلفظ «العوالة»، بل لدينا
 لفظ أشمل هو «العالمين»، وقد جاء هذا اللفظ في كتاب الله - تعالى - ٧٣ مرة .
 ومن اللافت للنظر أن عالم البشر، وهم جزء من «العالمين»، يفترون إلى ٧٣
 فرقة، كما جاء في قول النبي ﷺ: «افتقرت اليهود على إحدى وسبعين فرقة،
 وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت أمتي (*) على ثلاث
 وسبعين فرقة»^(١). ولوردت كل فرقة منهم أمرها إلى «رب العالمين» لانمحي
 افتراقها واندمجت في الفرقة الناجية .

وفيما يخص موضوعنا ؛ فسأذكر بعض الآيات مما ورد فيها لفظ «العالمين» مع
 الإشارة إلى دلالتها :

١ - قال - تعالى - : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف :

. [٥٤]

فكل ﴿الْعَالَمِينَ﴾ ربهم الله تعالى، هو الذي خلقهم، وأمره نافذ بينهم .

(*) قوله - عليه الصلاة والسلام - : «أمتي» ؛ قال بعضهم إنها (أمة الدعوة) فتكون عامة، أي شاملة
 لعالم البشر كله، وبعضهم قال (أمة الاستجابة)، فتكون بمعنى من قال بالشهادتين، لكن سياقنا
 الحديث للاستشهاد ؛ جاء للاستدلال به على وفق القول الأول .

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وهو في صحيح الجامع، رقم ١٠٩٤ .

٢ - قال - تعالى -: ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [السجدة: ٢] .
أي أن الله تعالى ، وهو رب العالمين ، قد أنزل كتاباً هو منهاج لهم ؛ لأنه هو ربهم
الذي خلقهم ، فلم يتركهم هملاً يتخبطون في سلوك طريق حياتهم .

٣ - قال - تعالى -: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾
[الفرقان: ١] ، وقال - تعالى -: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ،
فالرسول ﷺ أرسل للعالمين جميعاً ، وليس لقوم دون قوم ، وأنزل عليه الكتاب
الذي يجمع بين الرحمة والإنذار ، الرحمة في الدنيا والآخرة لمن آمن به وأتبعه
هواه ، والإنذار بعقوبة الدنيا والآخرة لمن كفره به ومضى على هواه .

٤ - قال - تعالى -: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾
[الأنعام: ٩٠] ؛ أي أن هذا المنهج متحرر من ضغوط المصلحة الشخصية ، واضح
البيان ، فصيح اللسان ، ذكرى للعالمين في كل مكان وزمان .

وبناءً على ذلك نقول : إن الإسلام دين للعالمين ، فهو دين عالمي بالمعنى
الشمولي ، ولا يسع أي من البشر أن يتبع غيره ، وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ
اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩] ، وقال - تعالى -: ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ
يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥] ، وقال - تعالى -: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا
وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨] ، فأصل «العالمية» يعود إلى الرسالة المحمدية ، فقد جاء في
الحديث الصحيح قوله ﷺ : « أُعْطِيتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ
قَبْلِي . . . » ، وفيه : « وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وُبعثت إلى الناس
عامة »^(١) .

إن العالمية الإسلامية ذات أبعاد تنفيذية عالمية ، منضبطة بالكتاب والسنة ،
ترمي إلى صياغة الهوية الخصوصية للأفراد والشعوب في جميع المناحي الحياتية
وفق الصبغة الربانية (أي تحقيق العبودية لله بمعناها الشامل) ، قال - تعالى -:

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، محمد فؤاد عبد الباقي ، ص ١٠٤ ، رقم ٢٩٩ .

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨] .

وتتميز «عالمية الإسلام» بما يأتي :

١ - مرجعيتها إلى «منهاج» ، وهو الكتاب والسنة (العولمة ليس لها مرجعية محددة) .

٢ - منهاجها رباني (العولمة مناهجها بشرية) .

٣ - قيميتها وصلاحتها لكل مكان وزمان وفرد وشعب (العولمة تفتقر إلى ذلك) .

٤ - استيعابها لكل المتغيرات التي تطرأ على سير البشرية (العولمة قاصرة في ذلك كله) .

٥ - لها رصيدها التاريخي الزاخر باستحقاقاتها التطبيقية وإثراءاتها المعرفية المستظلة بالانتماء للمنهج الرباني (العولمة لها أيضاً رصيد كبير ؛ لكنه مستظل بالانتماء للمناهج البشرية) .

٦ - السير التوافقي مع السنن الربانية (سنن التأييد) (العولمة تسير على خلاف ذلك ، فهي متراوحة بين سنن التجريد وسنن التعذيب) .

بعد أن اتضحت لدينا معالم «عالمية الإسلام» ؛ أصبح الآن بمقدورنا أن نمضي قدماً في الحديث عن التدافع بين «عالمية الإسلام» و «العولمة» .

التدافع بين عالمية الإسلام والعولمة البشرية:

لا بد أن نقرر ابتداءً أن «التدافع» هو تعبير عن «حالة حركية» ؛ هي محصلة لاستخدام «وسائل متنوعة» ، لتحقيق «مقاصد معينة» ، استناداً إلى «منهج عقدي» - حسب ما قررنا سابقاً - .

إن «الحالة الحركية» التي تعبّر عن عالمية الإسلام تستند إلى عنصرين رئيسين:

- العلم بالسنن الربانية .

- التزام الإنسان المسلم بالإسلام .

وإن «الحالة الحركية» للعولمة البشرية تستند أيضاً إلى عنصرين رئيسين:

- مناهج بشرية وصفية .

- التزام الإنسان بتلك المناهج .

إن التدافع بين عالمية الإسلام والعولمة البشرية هو التدافع بين هاتين الحالتين الحركيتين على مستوى العقائد والمقاصد والوسائل ، وذلك بحسب تفاعلها التدافعي الذي ذكرنا أنواعه التسعة .

إن التدافع في زمننا الحاضر لا نستطيع أن نقيم دعائمه وامتداداته ما لم نبين المكتنز الإيماني لهذه الأمة ؛ بما يحمل في جوفه من رصيد عظيم ؛ ابتداءً من دعوة نوح - عليه السلام - وإلى يومنا هذا ؛ مروراً عبر الزمان والمكان بجميع دعوات الرسل - عليهم السلام -، والتي كانت رسالة النبي ﷺ مسك ختامها . إن هذا المكتنز العظيم على مستوى الصراع الشامل عبر العقائد والمقاصد والوسائل ؛ هو دليل لا غنى عنه نستشرف عبر ضوء مصابيح مستقبل آفاق التدافع بين عالمية الإسلام وعولمة البشر ؛ لأجل ذلك فإننا سنتصفح أوراق المشاهد الكبرى في هذا الدليل عبر «دوائر التدافع» .

دوائر التدافع:

إن دوائر التدافع كثيرة، ولكنني سأختزلها في دائرتين رئيسيتين، هما: الدائرة المحدودة، والدائرة الشاملة (أو العامة) .

أولاً: التدافع في الدائرة المحدودة:

أقصد المحدودة جغرافياً وعرقياً؛ أي تتنفي منها العالمية الجغرافية والعالمية

البشرية ، ومثالها : التدافع الذي حصل بين الإسلام والشرك في عصور ما قبل البعثة المحمدية ، حيث كان التدافع على أشده بين الأنبياء ومن تبعهم - من جهة - ، وبين ملأ المشركين ومن تبعهم - من الجهة المقابلة - .

نريد أن نلقي ضوءاً على هذا التدافع في الدائرة المحدودة ؛ لعلاقته بالتدافع في الدائرة العامة .

نلمح في هذا التدافع بروز الجوانب التي ذكرناها ، وأسوقها بحسب ترتيب أهميتها :

١ - تدافع العقائد :

نلاحظ فيه : الوضوح ، والتميز ، والمفاصلة ، والتجرد .

الوضوح في المعنى .

التميز في المضمون .

المفاصلة في الموقف .

التجرد من الزمان والمكان .

كل ذلك كان جلياً في عقيدة كلٍّ من الطرفين المتدافعين : الأنبياء ، والملأ .

وهذه بعض الأمثلة :

* النبي نوح - عليه السلام - : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٥٩] .

الملأ : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف : ٦٠] .

* النبي هود - عليه السلام - : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٦٥] .

المَلَأُ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

* النبي صالح - عليه السلام -: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣].

المَلَأُ: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

وعلى هذا النسق جاء الأنبياء إلى أقوامهم خاصة، كل في بقعة جغرافية محددة، كإبراهيم ولوط وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء - عليهم السلام جميعاً -، كلُّ بعث إلى قومه، وكلُّ تصدى له المَلَأُ. إن اللازمة العقدية كانت واحدة لدى الجميع (الأنبياء والمَلَأُ)، وتضمنت التدافع الكلي والتدافع في جزئياته.

فالعنوان في التدافع الكلي هو التدافع بين الإيمان والكفر، وهو تدافع جلي وبيّن.

وكذلك التدافع في جزئيات الكلي أو في مكوناته كان جلياً وبيّناً.

فالوضوح في المعنى تضمّن: دعوة صريحة بيّنة إلى عبادة الله - تعالى - وحده من جهة الأنبياء، ورفض هذه الدعوة بشكل صريح بين من جهة المَلَأُ.

والتميز في المضمون تضمّن: أن هذه الدعوة تميزت بشعائر التوحيد مقابل ما كان عليه القوم من شعائر شرك - هذا من جهة الأنبياء -، وتميز مضمونها برفض هذه الشعائر الرسالية والإصرار على شعائر الشرك - من جهة المَلَأُ -.

والمفاصلة في الموقف تضمّنت: تكوين وحدة حركية إيمانية رابطتها العقيدة التوحيدية من جهة الأنبياء ومن آمن معهم؛ بمقابل الوحدة الحركية الشركية التي

كانت للمشاركين . لقد تَضَمَّنَتْ هذه المفاصلة الإيمانية بين الوجدتين - أحياناً - الافتراق الجغرافي ، كما قال إبراهيم - عليه السلام - حين كَذَّبَهُ قومه : ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ [العنكبوت : ٢٦] ؛ إضافة إلى ما تضمنته من المفاصلة الإيمانية .

والتجرد في الزمان والمكان : ذلك أن هذا التدافع العقدي نفسه قد حصل لكل الرسل ؛ بغض النظر عن أي زمان فيه أرسلوا ، أو في أي مكان فيه بُعثوا .
النتيجة : نلاحظ مما ذكرناه حالة «التدافع التام» في العقائد .

٢ - تدافع المقاصد :

إن جميع الأنبياء والمرسلين كان مقصدهم الخير لأقوامهم ، وتضمن ذلك :
* التجرد من المصلحة الشخصية : أي الإخلاص لله ، قال - تعالى - حاكياً عنهم : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الفرقان : ٥٧] ، وهو قول الرسول ﷺ ، ونوح - عليه السلام - : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الشعراء : ١٢٧] ، وصالح - عليه السلام - : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الشعراء : ١٤٥] ، ولوط - عليه السلام - : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الشعراء : ١٦٤] ، وشعيب - عليه السلام - : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الشعراء : ١٨٠] .
* البلاغ الإلهي : قال - تعالى - : ﴿ فَهَلْ عَلَى الرَّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النحل : ٣٥] .

دخل تحت البلاغ ثلاث مسائل رئيسة ؛ هي :

١ - مسائل الإيمان : وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره من الله تعالى .

٢ - مسائل الشريعة : وهي الأحكام الشرعية التي تميز بها كل نبي بحسب ما أوحى إليه ، قال - تعالى - : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة : ٤٨] .

٣ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : وقد ورد في تفاصيل ذلك آيات كثيرة .

وأما من جهة الكفار المشركين ؛ فإن جميعهم كان مقصدهم الشر للأنبياء ومن آمن معهم ، وتضمن ذلك :

* الخضوع للأهواء والمصالح الشخصية : قال - تعالى - : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الروم : ٢٩] ، قال ابن الجوزي : ﴿ بل اتبع الذين ظلموا ﴾ : أي أشركوا بالله ^(١) .

* البلاغ الشركي :

وقد دخل تحته ثلاث مسائل رئيسة :

١ - الإصرار على عقيدة الشرك : قال - تعالى - : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [إبراهيم : ٩] .

٢ - التشبث بشرائع الجاهلية : قال - تعالى - : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى : ٢١] .

٣ - الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف : وقد ورد في ذلك آيات كثيرة تبين تشبث المشركين بشركهم وسعيهم في النهي عن اتباع المرسلين ؛ من ذلك ما ذكره الله - تعالى - من موقف قوم صالح - عليه السلام - : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٥ - ٧٧] .

(١) زاد المسير في علم التفسير ، ابن الجوزي ، (٦ / ٢٩٩) .

النتيجة: نلاحظ مما ذكرناه حالة «التدافع التام» في المقاصد.

٣ - تدافع الوسائل:

غالباً ما يرسل الله - تعالى - رسولاً واحداً إلى قوم - وأحياناً يعزز بثان، وربما بثالث -، هؤلاء القوم يمثلهم في مواجهة الرسول ما أسماه القرآن: ﴿الْمَلَأُ﴾؛ لأنهم يملؤون العيون هيبة بما لهم من زعامة ووجاهة، وبطبيعة الحال فإن هؤلاء يسيطرون ويتحكمون بجميع الوسائل المادية والمعنوية، إنهم يملكون المال والسلاح والسلطة والعدد في الجانب المادي، ويملكون سلاح الشعور بالاستكبار والإحساس بالعلو والفوقية في الجانب المعنوي، وكانوا يعبرون عن ذلك بالسخرية والاستهزاء بالأنبياء ومن تبعهم. وقد استعملوا الجانب المادي في محاربة الرسل وقمع دعوتهم بما في ذلك الشروع في قتلهم، وقد نجحوا في ذلك أحياناً؛ كما حصل لنبي الله - تعالى - يحيى عليه السلام، وشبه لهم عيسى - عليه السلام - فقتلوا الشبه ورفع الله عيسى عليه السلام، وأخفقوا في ذلك أحياناً كثيرة، وكل ذلك ضمن قدر الله ومشئته ووفق سننه.

أما الرسل ومن آمن معهم؛ فقد كانوا يفتقرون إلى الجانب المادي الذي يكافئ ما لدى الملأ، بل ولا يقاربه، لكنهم يمتلكون الجانب المعنوي بأضعاف مضاعفة من الجانب المعنوي الذي لدى الملأ. هذا الجانب هو الإيمان، إن أهم ميزة في هذا الجانب هي إمكانية تحويله إلى حالة مادية يعوض بها النقص في الجانب المادي، إن ترجمة ذلك تتمثل في أمور كثيرة؛ من أهمها:

١ - الثقة بوعد الله ونصره.

٢ - الصبر على مشاق الدعوة وطبيعة المواجهة.

٣ - الاستعداد التام والدائم للبذل (بأنواعه) في سبيل الله.

إن كلا من الطرفين يوظف جميع وسائله ضد الطرف الآخر.

النتيجة: الطرفان في حالة «التدافع التام» في استعمال الوسائل .

ما عوامل الحسم في هذا التدافع؟

للهزيمة الأولى يمكن أن يقول قائل: ما دام الطرفان متوازنين في حالة تقابلية من الضدية في العقائد والمقاصد؛ فالذي يحسم الموقف هو التدافع في الوسائل المادية، وبما أن الملاءم الذين يملكونها يتفوق كبير؛ فالنتيجة الطبيعية أن ينتصر الملاءم ومن معهم على الرسل ومن اتبعهم؛ غير أن الذي حصل، ويتكرر باستمرار، هو خلاف ذلك!

لقد كانت عقيدة الأنبياء تكسب أفراداً جددًا من قوم الملاءم، وهذا دليل مادي على أن «التدافع التام» في العقائد لم يكن متكافئاً بل كان لمصلحة الأنبياء، وإن كان بقدر ضئيل؛ ذلك أنه على الدوام كان أتباع الأنبياء قليلين جداً قياساً على أعداد المقيمين على الشرك.

ومن حيث المقاصد؛ فإن مقاصد الخير التي دعا إليها الأنبياء لا يجوز مقارنتها بمقاصد الشر التي كان عليها الملاءم وأقوامهم، فمقاصد الخير تحمل في كوامنها دوافع الدعوة إليها؛ في حين أن مقاصد الشر تحمل في طياتها دوافع التواري والتخفي، وشتان ما بين النقيضين.

وأما بخصوص الوسائل؛ فإن الأنبياء واثقون بنصر الله، وأما الملاءم وأقوامهم فليس لهم إلا ما يملكون.

فعندما استوفى الأنبياء والمرسلون دواعي الصمود في مواقف التدافع:

١ - فاستقاموا.

٢ - وصبروا.

٣ - ولم يهنوا.

٤ - ولم يدهنوا ..

. . أتاهم نصر الله ، وجاء الحسم منه وحده ، فهم قد استنفدوا جهدهم في حالات «التدافع التام» على مستوى العقيدة والمقاصد والوسائل ، ولم يكن مطلوباً منهم أكثر من ذلك ، فاستحقوا أن يُسَخَّرَ الله - تعالى - لهم من جنوده ما ينصرهم به ، جلاه في موكب مهيب ورعيب من آياته الكونية المزلزلة والباطشة .

وهذه بعض الأمثلة :

* قوم نوح عليه السلام : عندما بلغ التدافع بين نوح - عليه السلام - ومن آمن معه وبين المشركين مبلغه ، واستنفد نوح - عليه السلام - وسائله ؛ حسم الله - تعالى - هذا التدافع بأن أغرق الله الكافرين بطوفان عظيم ، ودفع بذلك فساد المفسدين ، قال - تعالى - : ﴿ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ۖ ﴾ [١٠] فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ ﴿ ١١ ﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿ [القمر : ١٠ - ١٢] .

* قوم هود عليه السلام : بعد أن احتدمت المواجهة بين هود - عليه السلام - وبين قومه ، واستوى التدافع بينهما على سوقه ؛ جاء أمر الله - تعالى - بتدمير عاد التي كانت طاغية وباغية ، متكبرة ومتجبرة ، وما كان أحد يشك أن التدافع بين هود وعاد سينتهي بالقضاء على هود ومن آمن معه ؛ إذ الجميع كانوا مبهورين بهذه الأمة ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر : ٨] ، ولكن جرت عليهم سنة الله - تعالى - بنصر أنبيائه على أعدائه ، قال - تعالى - : ﴿ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرَصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿ ٢٦ ﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَزُوا نُحْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿ ٢٧ ﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٦ - ٨] .

* قوم صالح عليه السلام : دافع صالح - عليه السلام - قومه بالبينة فدفعوه بالتعجيز ، وطلبوا ناقة تخرج من صخرة !! فشق الله - تعالى - الصخرة وأخرج لهم الناقة ، فكانت «مدافعة» مبهرة ، فُنكسوا على رؤوسهم واستمروا على تحديهم ، فحسم الله - تعالى - هذا التدافع بآية قاهرة ، قال - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ

﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَانُوا لَمْ يَعْنُوا فِيهَا إِلَّا إِنْ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لَتَمُودَ ﴿٦٨﴾ [هود: ٦٦ - ٦٨] .

* قوم شعيب عليه السلام: دافع شعيب - عليه السلام - قومه في مدين بالحجة والبرهان ، وإبطال ما هم عليه من الشرك والبهتان ، فدفعوه بالصد والرد ، وبالتهديد والوعيد بالنفي والتشريد ، قال - تعالى - : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مَلَّتِنَا ﴾ [الأعراف: ٨٨] ، فلما وصل التدافع مداه جاءه نصر الله ، قال - تعالى - : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٨٩] .

* قوم لوط عليه السلام: احتدم التدافع بين لوط - عليه السلام - وقومه حتى بلغ أقصاه ، دافعهم بالتوحيد والفضيلة ، ودافعوه بالشرك والرذيلة ، وعندما وصل الحد إلى أن يقول لوط - عليه السلام - : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود: ٨٠] ؛ جاءه الحسم الإلهي «بدافعة» مدمرة ، قال - تعالى - : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٢ - ٧٥] .

* قوم إبراهيم عليه السلام: تدافع شديد في العقيدة قاد إلى تدافع متسارع في الحركة ، إبراهيم - عليه السلام - يكسر أصنام قومه ، فيباشر قومه إحراقه ، فينصره الله في مشهد مهيب ، قال إبراهيم - كما حكاه الله - تعالى - عنه في كتابه - : ﴿ أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٧ - ٧٠] .

* قوم موسى عليه السلام: دافع موسى - عليه السلام - بالتوحيد تأله فرعون ، ومَرَّ «التدافع» في صولات وجولات ، ولم يكن ثمة مقارنة في «القوى الظاهرة»

بين الطرفين ، وعندما ظن قوم موسى أن فرعون وجنده أوشكوا على الإطباق عليهم ؛ قالوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ [الشعراء : ٦١] ، قال موسى عندها وهو على علم بأن خط سيره مجار لسنن ربه في «التدافع» : ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٦٢] ، وهكذا كان ، قال - تعالى - : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ [٦٣] وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٦٣ - ٦٧] ؛ أي عندما ظن فرعون وجنده أن حسم التدافع لمصلحتهم أصبح بين أيديهم وصار وشيكاً ؛ جاءهم الحسم من الله - تعالى - من حيث لم يحتسبوا ، وباغت ساحتهم وهم في أوج قوتهم وبغيهم واعتدائهم ، تدافع عجيب وحسم أعجب !! قال - تعالى - : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [٩٠] آلآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩٠ - ٩١] .

* قوم عيسى عليه السلام : اشتعل التدافع بين عيسى - عليه السلام - وبين بني إسرائيل ، ووصل مداه بتدبير مؤامرة قتله ، فقتلوا شبهه ورفع الله عيسى - عليه السلام - إليه ، قال - تعالى - : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ [١٥٧] بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٥٧ - ١٥٨] ، لم ينته هذا التدافع بعد ، وله جولة صاخبة قادمة في طي السنين ، ولكنها في هذه المرة ستكون تحت راية شريعة الإسلام المحمدية ، قال - تعالى - : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ١٥٩] .

تلك بعض الأمثلة ، وقد ذكر الله - تعالى - في كتابه ما آل إليه أمر كثير

من الأمم المكذبة لرسليها بعد أن خاضوا معهم لجة «التدافع» إلى أعماقها، قال - تعالى -: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

لقد كان كل قوم يمارسون مع أنبيائهم «عولمة الشرك»، ولكن في بقعة جغرافية محدودة. أقول «عولمة الشرك» باعتبار أن الشرك كان عالمياً، فكل قوم كانوا يستندون إلى «عولمة الشرك» من حيث امتداده العالمي، ويمارسون «محدودية التصدي» من حيث البقعة الجغرافية؛ أي أن ظاهرهم الشرطي كان «عالمي الامتداد»، لكن واجهتهم المباشرة كانت «محدودة البقعة». في هذا الإطار حصل «التدافع العام»، فكانت النتيجة منسجمة مع «سنن التدافع» وفق المنهج الرباني؛ مما ترتب عليه إزالة فساد الشرك، وإقرار صلاح التوحيد في كل حالة تدافع.

فما «سنن التدافع» وفق المنهج الرباني؟! هذا ما سنعود إليه بعد حديثنا عن التدافع في الدائرة الشاملة.

ثانياً: التدافع في الدائرة الشاملة (أو العامة) :

الدائرة الشاملة (أو العامة) هي دائرة دعوة النبي ﷺ، وقد حوت هذه الدائرة مكونات الدوائر المحدودة، لكن امتازت عنها بأمور، سواء في ذاتها أو في نبيها ﷺ، وقد بين النبي ﷺ ذلك فقال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتُهُ الصَّلَاةُ فَلْيَصِلْ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً»^(١).

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٠٤، رقم ٢٩٩.

ويتبين من هذا الحديث ما يأتي :

١ - أن التدافع بين أمة النبي ﷺ والكافرين سيُشمل الأرض كافة ، وليست بقعة محدودة كما في الدائرة الخاصة ، ويدل عليه قوله - عليه الصلاة والسلام - : «وجُعِلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» .

٢ - وأن هذا التدافع سيستمر إلى قيام الساعة ، وليس مقيداً بمدة حياة النبي ﷺ ، فهي دائرة عامة في المكان والزمان ، «وبُعِثت إلى الناس عامة» ، ويدل عليها قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ : ٢٨] .

وهي شاملة للجن كذلك ، قال - تعالى - : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴾ [٢٩] قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف : ٢٩ - ٣٢] .

٣ - أن «دفع» النبي ﷺ مجلل بالهيبة مكلل بالسؤدد ؛ بحيث أن أثره يشيع الرعب في قلوب أعداء المسلمين وإن بعد عنهم مسيرة شهر .

٤ - أن «دفع» المؤمنين ينطوي في مضامينه العامل النفسي المحرك ، فهو دفع مأجور في الدنيا بالغنائم وفي الآخرة بالشفاعة والجنة .

إن هذه «الدفع» الأربعة ملحوظ فيها التوازن :

فالدفعان الأولان يشكّلان عبئاً عظيماً تتحمل ثقله هذه الأمة بالخصوص دون الأمم السابقة ، فوزان ذلك أن يكون الدفعان الآخران مكافأة لهذه الأمة بسبب تلك الزيادة التي امتازت بها على غيرها من الأمم في الدفعين الأولين . وإذا كان أعداء الإسلام «يدفعون» لمقابلة «الدفعين الأولين» ؛ فإنهم محرومون من

عاملِي الدَفْعِينَ الْآخَرِينَ، قَالَ - تَعَالَى -: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]. فَإِنْ قِيلَ إِنَّهُمْ «يَدْفَعُونَ» لِأَجْلِ الْغَنَائِمِ، وَقَدْ يَحْصِلُونَ عَلَيْهَا أَوْ عَلَى بَعْضِهَا! قُلْتُ: نَعَمْ، لَكِنْ يَوَازِنُ ذَلِكَ فِي دَائِرَةِ التَّدَافِعِ وَقُوعِ الرِّعْبِ فِي قُلُوبِهِمْ، حَتَّى إِنْ كَانُوا فِي حَالَةِ انْتِصَارٍ فِي مَعْرَكَةٍ مَا؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ مَرْعُوبِينَ مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ تُسْفِرَ عَنْهُ الْمَعَارِكُ اللاحقة، قَالَ - تَعَالَى -: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

٥ - أَنْ حَالَةَ التَّدَافِعِ فِي الدَّائِرَةِ الْعَامَةِ؛ لَكُونِهَا فِي إِطَارِ «وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً»، فَإِنْ مِنْ طَبِيعَتِهَا أَلَّا تَحَافِظَ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ، كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي الدَّائِرَةِ الْمَحْدُودَةِ لِلتَّدَافِعِ، بَلْ هِيَ تَأْخُذُ أَوْضَاعاً «مَنَاطِيَّةً» - مِنْ الْمَنَاطِ - بِحَسَبِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، فَلكلِّ حَالَةٍ زَمَانِيَّةٍ مَكَانِيَّةٍ لَوْنٌ خَاصٌّ مِنْ «التَّدَافِعِ» يَعْتَمِدُ عَلَى الْمَنَاطِ الْمَعْتَبَرِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ.

وَيُعَدُّ كُلُّ «تَدَافِعٍ» زَمَانِيٍّ مَكَانِيٍّ رَصِيداً لِلتَّدَافِعِ الَّذِي يَلِيهِ، وَهَكَذَا حَتَّى وَقَتْنَا الْحَاضِرَ، فَالتَّدَافِعُ الْإِسْلَامِيُّ مَعَ الْعَوْلَةِ فِي زَمَنِ الْمَعَاصِرِ يَسْتَنْدُ إِلَى رَصِيدِ تَدَافِعِي عَمْرِهِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا مِنْ حَيْثُ الْخُصُوصِ، وَإِلَى رَصِيدِ غَائِرٍ فِي الزَّمَانِ مِنْذُ عَهْدِ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنْ حَيْثُ الْعُمُومِ، وَلَكِنْ الْمَشْكَلَةُ قَائِمَةٌ فِي ضَعْفِ الْاسْتِنْهَاضِ الدَّعْوِيِّ لِلِاسْتِفَادَةِ مِنْ ذَلِكَ الرِّصِيدِ، وَفِي تَوْظِيْفِهِ فِي الصَّرَاعِ الْعَالَمِيِّ - الْعَوْلِيِّ الْقَائِمِ.

نريد الآن أن نسبر غور ذلك كله في إطار الدائرة الشاملة أو العامة.

التدافع الرسالي الشرقي(*):

نقسم التدافع الرسالي الشرقي إلى قسمين رئيسين:

(*) أي التدافع بين الرسالة التوحيدية ومن يؤمن بها، وبين الشرك ومن يعتنقه.

الأول: التدافع في العهد المكي .

الثاني: التدافع في العهد المدني .

سنلقي ضوءاً على هذه «التدافعات» من منظار الزوايا الثلاث التي ذكرناها، وهي: (العقائد، المقاصد، الوسائل)، وينبغي أن نستحضر دائماً علاقة ما سأقوله مع حالة التدافع مع العولة في واقعنا المعاصر .

الأول: التدافع في العهد المكي:

استمر ثلاثة عشر عاماً .

إن هذا التدافع له الميزات نفسها التي ذكرناها عن الحديث عن التدافع في الدائرة المحدودة لما سلف من الأنبياء السابقين؛ غير أنه لم ينته بالحسم الذي انتهى إليه ذلك التدافع، وذلك لأن التدافع في العهد المكي هو مرحلة من عموم التدافع في العهد النبوي وليس هو نهايته .

أولاً: تدافع العقائد في العهد المكي:

هو تدافع بين الإيمان والكفر، قال - تعالى -: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال - تعالى -: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ١ - ٣]، وفي آخرها ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] .

ذلك هو الإطار الكلي في التدافع، وقد تضمّن هذا الكلي جزئياته، وهي الوضوح والتميز والمفاصلة والتجرد، وسأذكرها مختصرة جداً على الوجه الآتي:

١ - الوضوح في المعنى:

خاطب القرآن العرب بلغتهم بأبلغ بيان وأوضح معنى، فحقق في ذلك

غائتين:

الأولى: وضوح الدعوة إلى عبادة الله - تعالى - وحده، قال - تعالى -: ﴿وَأَنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥﴾ .

الثانية: تجلية ذلك بلسان عربي فصيح يتحدى أحداً أن يأتي بمثله، قال - تعالى -: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿البقرة: ٢٣ - ٢٤﴾ ، وامتد التحدي إلى مداه، فقال - تعالى -: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء: ٨٨) .

لقد حصل التدافع في هذا الجانب من جهة أن كلا الطرفين قد أوضح معنى ما يريده من الطرف الآخر، وبما أن المعنيين متضادان تماماً؛ فالتدافع التام قد حصل على وفق ذلك .

انظر إلى الموقف النبوي ووضوح معنى ما يدعو إليه في هذه الآية الكريمة، قال - تعالى -: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ١٩) ، لقد فهم المشركون هذا المعنى، فأجابوا بلسان عربي فصيح: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] ، إنه تدافع تام في معنى واضح لا لبس فيه .

ومثل ذلك في قضية الإيمان باليوم الآخر: قال - تعالى -: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمْ﴾ [سبأ: ٣] ، إنه تدافع تام في معنى واضح لا لبس فيه .

ومثل ذلك في قضية الإيمان بالقرآن المنزل: قال - تعالى -: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلَقَّى

الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿ [النمل : ٦] .

إن هذه الآية تثبت ثلاثة أمور :

الأول : القرآن .

الثاني : أنه من الله .

الثالث : تلقي النبي ﷺ له .

فماذا قال المشركون؟! قال الله - تعالى - : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [سبأ : ٣١] ؛ أي رفضوا الإيمان به من حيث هو ، ورفضوا الإيمان بالتوراة والإنجيل التي أوصت بالإيمان به ، قال ابن الجوزي : «﴿وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾» ، يعنون التوراة والإنجيل ، وذلك أن مؤمني أهل الكتاب قالوا : إن صفة محمد في كتابنا (أي موجودة في كتابنا) ، فكفر أهل مكة بكتابكم (أي بكتاب أهل الكتاب)»^(١) . ومدار عدم توحيدهم عبادة الله - تعالى - وعدم الإيمان باليوم الآخر وبالقرآن المنزل ؛ هو عدم إيمانهم بالرسول محمد ﷺ .

فعندما قال الله - تعالى - : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [فاطر : ٢٤] ؛ قال المشركون - فيما حكاه عنهم القرآن - : ﴿ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ [الفرقان : ٤١] ؛ أي أنهم دفعوا ما أثبتته الله - تعالى - لنبيه من إرساله إياه بالحق ، دفعوه بالتكذيب بصيغة الاستفهام الإنكاري ، وعززوا تكذيبهم له بالطلبات التعجيزية كما في سورة الإسراء ، ولن يعجز الله شيء في الأرض ولا في السماء ، فلو شاء لفعل لنبيه ما يطلبون ، لكن الله - تعالى - علم أنهم لم يطلبوا ذلك لأجل التصديق والإيمان ؛ بل بسبب الكبر والاستعلاء بالباطل الذي أُشربته قلوبهم .

٢ - التميز في المضمون :

لقد كان واضحاً التدافع التام في التميز في المضمون من حيث :

(١) زاد المسير في علم التفسير ، ابن الجوزي ، (٦ / ٢٩٩) .

١ - المرجعية: لقد كانت مرجعية النبي ﷺ الوحي، قال - تعالى -: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وقال - تعالى -: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤]. أما المشركون فكانت مرجعتهم ما ورثوه عن آبائهم، قال - تعالى -: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

٢ - المحتوى: إن ما جاء به النبي ﷺ منهاج كامل للحياة، قال - تعالى -: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الحاثية: ١٨]، وقال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]. أما محتوى ما كان عليه المشركون؛ فهو إما ما شرعه لهم الشركاء من البشر القاصرين المنحرفين، كما قال - تعالى -: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وإما الهوى المحض، كما قال - تعالى -: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩]. نعم، كانت لهم بعض الخصال المحمودة، لكنها غير مشدّبة ولا مهذّبة، فشذّبتها الإسلام وهذّبها، قال ﷺ: «إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق»^(١)، فمدحه الله - تعالى - بذلك فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وتفسيره ما ذكرته عائشة - رضي الله عنها -: «فإن خلق النبي ﷺ كان القرآن»^(٢)، فدفعت الأخلاق النبوية الرفيعة أخلاق الجاهلية الوضيعة. ومن أبرز التدافع في المحتوى التدافع في الشعائر، وأخصها شعيرة الصلاة، فإن النبي ﷺ كان يصلي لله مستقبلاً الكعبة، قال - تعالى -: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وكان المشركون إما يصلون لأصنامهم فيسجدون لها ويولونها وجوههم، وإما يدورون حول الكعبة

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، والبيهقي في دلائل الإيمان، وهو في صحيح الجامع، رقم ٥٢٣٤.

(٢) صحيح مسلم، (١ / ٥١٣)، رقم ٧٤٦.

يصفقون ويصفرون، قال - تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].

٣ - المفاصلة في المواقف العقيدية:

نظراً للتدافع التام بين العقيدتين؛ فلا بد من حصول التدافع في المواقف، والمفاصلة بينهما على ذلك، كان كل طرف يريد المحافظة على موقعه ويتمسك بمبادئه، والفرق بينهما أن النبي ﷺ يريد الخير لقومه وإنقاذهم من النار؛ في حين يريد المشركون الشر له ولدعوته والتربص به وبمن اتبعه، ولهذا فإن النبي ﷺ كان يتحمل الضغط النفسي إشفاقاً على قومه، قال - تعالى -: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقال - تعالى -: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]، ومع ذلك فإن النبي ﷺ كان يمارس ضغطه على المشركين دون أن يقع في فخ التنازلات، أو ما يُسمى بلغة العصر «أنصاف الحلول»، فحافظ على نقاء خندقه الإيماني. من جهتهم؛ فإن المشركين مارسوا أقصى أنواع الضغوط على النبي ﷺ ليتنازل إيمانياً شيئاً ما عما يدعوهم إليه، فباءت جميع محاولاتهم بالإخفاق، وقد سجل القرآن مواقف كثيرة تدخل في هذا السياق، أذكر على سبيل الإشارة وليس الحصر ثلاثة منها:

الأول: قوله - تعالى -: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١ - ٢]، وهذا حين عرض الكفار على النبي ﷺ أن يعبدوا إلهه سنة ويعبد أوثانهم سنة.

الثاني: قوله - تعالى -: ﴿وَذُؤا لَوْ تَذَهْنُ فَيَذْهَبُونَ﴾ [القلم: ٩]، قال مجاهد: «ودوا لو تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق»^(١).

الثالث: قوله - تعالى -: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ [ص: ٧٣]، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٨ / ١٩٠).

﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥]، قال قتادة: «إن قريشاً خلّوا برسول الله ﷺ ليلة إلى الصباح يكلمونه ويفخمونه ويقولون: أنت سيدنا وابن سيدنا. وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون، ثم عصمه الله من ذلك، ونزلت هذه الآية» (١). نعم! لقد كان تدافعاً شديداً، كلُّ تمسك بعقيدته، وكلُّ أراد أن يضغط على الآخر ليسحبه لحنقه العقدي. إن القضية التي نريد أن نشير إليها هنا؛ هي أن النبي ﷺ رفض رفضاً قاطعاً أي وسيلة يمكن أن تؤدي إلى «تداخل الخنادق العقديّة»، وتمسك بالوضوح التام في المفاصلة بحسب ما أمره الله تعالى؛ مستشرفاً معنى هذه الآية العظيمة: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنَ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فلا تداخل مطلقاً، بل لا بد من الكفر بالطاغوت أولاً قبل التشرف بلمس عتبة الإيمان؛ تماماً كما لا بد من التطهر من النجس أولاً قبل الدخول إلى رحاب الصلاة.

ضمن هذا المعنى الجلي برز في مكة معسكران: معسكر الإيمان، وضمّ النبي ﷺ ومن آمن معه، وكان معسكراً مضطرباً الاتساع. ومعسكر الكفر، وضمّ الملأ القرشي ومن التف حوله من عامة المشركين. نشأت عن هذين المعسكرين حالتان حركيتان متفاصلتان ومتدافعتان، وبما أن العالمية سمة هذا الدين؛ فإن الحالة الحركية الإيمانية لم تتوقف في العهد المكي عند حدود مكة، بل سعت إلى الامتداد خارجها آخذة في ذلك زمام المبادرة، تاركة المشركين يلهثون وراء انسيابها في محاولات يائسة لإيقاف هذا التمدد، ولكن دون جدوى.

٤ - التجرد من قيدي الزمان والمكان:

امتازت العالمية الإسلامية من حيث الزمان: بأنها فيما لحق باقية إلى قيام الساعة، قال ﷺ: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله؛ قاهرين

(١) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، (٥ / ٦٨).

لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»^(١)، وأنها فيما سبق امتداد للدوائر الإيمانية المحدودة التي كانت قبلها، فدين الجميع هو الإسلام، قال - تعالى -: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وأن جميع الأنبياء السابقين بشرّوا بالنبى ﷺ، وأخذ الله عليهم الميثاق وعلى أقوامهم أن يؤمنوا به وينضوا تحت لوائه إذا بعث، قال - تعالى -: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

وامتازت العالمية الإسلامية بتجردها من محدودية المكان، وذلك أن هذا الدين جاء للناس كافة؛ بمعنى أنه لكل الناس أينما كانوا، قال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وضمن هذا السياق جاءت الهجرة إلى الحبشة، والعرض على القبائل، وذهاب النبي ﷺ إلى ثقيف . . وغيرها من المواقف النبوية في العهد المكي، والتي تعني في مضمونها أن مكة كانت مجرد نقطة انطلاق آنئذ، قال - تعالى -: ﴿وَلْتَنْذِرْ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

ماذا يعني هذا فيما يخص تدافع العقائد؟ :

إنه يعني أن ما ينبغي أن يترسخ في قلوب المؤمنين من عقيدة التوحيد وما تنطوي عليه في جزئياتها؛ قد حاز من الشمول في المحتوى والعمق في المعنى ما يمكنه من مدافعة جميع العقائد الباطلة في أي زمان وفي أي مكان، مهما كان خلف تلك العقائد من نظريات أو فلسفات أو أفكار أو آراء أو شعوزات أو بدع أو نظريات، مدافعة فيها من قوة الحجة وظهور البيان ومتانة البرهان ما يبهز كل ذي لب وجنان، وما يبطل حجج جميع تلك العقائد الزائفة وما انطوت عليه وما

(١) صحيح مسلم (٣ / ١٥٢٥)، رقم ١٩٢٤. ورواه البخاري وغيره بألفاظ أخرى عن عدد من الصحابة.

دعت إليه من زيف وبهتان، قال - تعالى -: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وقال - تعالى -: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨] . إنها العالمية التي أخذت منذ البداية في الاعتبار أنها ستكون في مواجهة دوائر الكفر بعد رحلة وقرناً بعد قرناً؛ إلى أن أضحت هذه العالمية في خضم مدافعة العولمة الحالية؛ مع الأخذ بعين الاعتبار أن ذلك كله قد تم رغم المدافعة الشاملة من قبل المشركين ليوقفوا زحف الحق وليوطدوا أركان الباطل، ومن فهمنا لهذه الحقيقة نعلم لماذا جاء في القرآن المكي ما يرد على اليهود والنصارى، كما في سورة مريم وغيرها، وهي سور مكية، فقد كان ذلك تحصيئاً مبكراً للمسلمين في عقيدتهم قبل أن تكون الهجرة وتأتي المواجهة المباشرة معهم .

ثانياً: تدافع المقاصد في العهد المكي:

لقد اعتمد تدافع المقاصد في العهد المكي على عاملين رئيسين؛ هما:

أولاً: الإخلاص والتجرد من مصلحة الذات :

تماماً كالأنبياء والمرسلين السابقين؛ لم يكن للنبي ﷺ حظ خاص له فيما دعا قومه إليه من توحيد الله - تعالى - والإقلاع عن الشرك؛ إذ إنه لم يقصد شيئاً لنفسه من ذلك البتة، وقد كرر القرآن في آيات عدة نزلت في العهد المكي في أوقات متفاوتة هذا المعنى الجليل؛ بما يفيد مواظبة النبي ﷺ على تأكيد ذلك في عدة مناسبات على مدى ثلاثة عشر عاماً؛ أي أن ذلك، أي عدم تقاضي أجر على دعوته، هو موضوع أصلي في منهاجه، لا يخضع إلى تغير الظروف والأحوال، بل هو ثابت وراسخ . ولقد بلغت الآيات التي تؤكد هذا المعنى ثمانين آيات، وردت في سور الأنعام ويوسف والفرقان وسبأ وص والشورى والطور والقلم، ففي سورة الأنعام قوله - تعالى -: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وفي سورة يوسف تصديق لقوله ذاك، قال - تعالى -: ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾

[يوسف: ١٠٤]. وفي سورتي الطور والقلم تأكيد ذلك بصيغة الاستفهام الاستنكاري، قال - تعالى -: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّعْرَمٍ مَثْقُلُونَ﴾ [الطور: ٤٠].

إن هذه الخاصية قد انتقلت بالدعوة من دائرة مصلحة الذات إلى دائرة التعبد المحض، وهذا يعني في مفهوم العالمية أن الجهد المبذول لنشر الإسلام على مستوى العالم كانت بؤرة انطلاق دعوة خالصة، لها عمقها التاريخي عبر الدوائر التي غطتها دعوات الأنبياء السابقين، ثم وجدت امتدادها في أصل المنهج النبوي المحمدي الذي أورقت أغصانه فيما بعد عبر امتدادات الزمان والمكان، وهي في كل ذلك تدافع أعداء الدعوة - من جهة -، والمتنفعين منها لحاجة أنفسهم - من جهة أخرى -، إن هذه المنهجية المتجردة من حظ الذات هي القادرة اليوم - فيما لو استحضرتها في الواقع الدعوي - على مقابلة العولمة ومقارعتها.

ثانياً: البلاغ:

هو قصد بذاته، وهو نفسه الذي ذكرناه في الدوائر المحدودة من دعوة الأنبياء السابقين، قال - تعالى - آمراً رسوله ﷺ بالبلاغ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال في حصر رسالته بالبلاغ: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨]، وقال - تعالى -: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]. إن هذا البلاغ له صفة العالمية؛ لذا كان من المتوقع أن يصطدم وهو ينتشر عبر الزمان والمكان بكل «البلاغات» الشركية، ويتدافع معها عبر توسع مضطرد.

إن الدعائم الأساسية لهذا البلاغ بقيت ثابتة عبر العهدين المكي والمدني؛ غير أن مقتضيات التنفيذ اختلفت؛ ذلك أن استحقاقاتها من حيث الوجود شملت العهد الرسالي كله، ولكنها من حيث العدم اقتصرت غالباً على العهد المدني. وأقصد بقولي «من حيث العدم» أي العقوبات الدنيوية التي يطبقها الحاكم في

حالة انتهاك حرمة الأحكام (أي انتهاك حالة الوجود)، حيث إن ذلك كله كان من خصائص العهد المدني. وبناءً على ما ذكرنا؛ فإن البلاغ في العهد المكي في مسائل الإيمان والشرعية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد انضوى معظمه في كليات المقاصد الخمسة التي قصدها الإسلام، وهي: حفظ الدين، والنفس، والعرض، والعقل، والمال. وذلك من حيث الوجود.

إن البلاغ الرسالي في إطار المقاصد الخمسة قد شكّل «دفعاً» بحسب أولوياتها، ثم، وعلى النسق نفسه، إن رفض المشركين لذلك البلاغ قد شكّل «دفعاً مضاداً» بحسب تلك الأولويات؛ غير أن ذلك الوضع ربما تلاشى إزاء بعض تلك المقاصد لعدم امتلاكه قدرة الرد أو التسوية، وربما أحجم عن الدفع في بعض جزئيات المقاصد ورد على جزئياتها الأخرى. إن دراسة تفصيلية لهذه النقطة ستوضح حصول «شبكة صراعات متداخلة» في إطار تدافع المقاصد بين الطرفين: الإيماني والشركي.

ولما كان هذا البحث مختصراً فسأشير لما ماً لبعض ذلك على الوجه الآتي:

١ - التدافع في مقصد حفظ الدين:

أشرت إلى ذلك في مقصد تدافع العقائد، وبيّنت «الدفع» النبوي وما قابله من «الدفع» الشركي. وبما أنه في العهد المكي لم تكن للإسلام دولة ذات سلطة؛ فإن الدفع من حيث العدم (أي الكفر أو الردة) لم تكن له تشريعات بصده، كتشريع الجهاد أو إقامة حد الردة مثلاً، بل كان الدفع لذلك معلّق بعقاب الآخرة فحسب، كقوله - تعالى -: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ هُمُ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَوَخَّوْا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوا﴾ [الكهف: ١٠٦]، والآيات في هذه المعنى كثيرة جداً، ولكن الدفع النبوي كان من الشمول في إطار هذا المقصد؛ بحيث أنه لم يتوقف عند ذكر الجزاء على الشرك، بل إنه أغلق كل الزوايا التي من الممكن من خلالها أن يدفع المشركون عن شركهم، فلم يبق سبيل عقلي أو سمعي إلا وسلّكه، ثم اندفع إلى أقصى مداه

فأحكم سد جهته المقابلة ، فحال دون إمكان ولوج الدفع الشركي في منحاه أو في طريقه ، وقد استمر هذا التدافع على مدى الليالي والأيام طوال ثلاثة عشر عاماً ؛ أي مدة العهد المكي ؛ بمعنى أن هذا التدافع لم يكن لمرة أو مرات عديدة ، بل كان سمة مرحلة كاملة .

لنقرأ معاً بعض آيات الكتاب بهذا الخصوص :

قال - تعالى - : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

قال - تعالى - : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَغُوا إِلَيَّ الْعَرْشَ سَبِيلًا ﴾ [٤٢] ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٤٢ - ٤٣] .

وقال - تعالى - : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩١] .

وقال - تعالى - : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [٣٥] ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور : ٣٥ - ٣٦] .

وقال - تعالى - : ﴿ أَمِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴾ [٦٠] ﴿ أَمِنْ جَعَلِ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٦١] ﴿ أَمِنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ ﴾ [٦٢] ﴿ أَمِنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [٦٣] ﴿ أَمِنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل : ٦٠ - ٦٤] .

هذه الآيات وغيرها دفع بها النبي ﷺ مزاعم المشركين ، فلم يكن لهم بد من أن يدفعوا بما زعموه أنه رد ؛ من مثل قولهم - فيما ورد عنهم في القرآن - : ﴿ هَذَا

سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿ [الأحقاف: ٧] ، و ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] ، و ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ أَفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤] ، أو قولهم: ﴿اكَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥] ، ولا شك أن هذا دفع متهافت لا قيمة له ولا وزن، تمجده العقول الراجحة، وتنكره القلوب السليمة. ولقد كانت النتيجة الحتمية أن براهين مقصد حفظ الدين وسعت دائرة الداخلين في الإسلام لقوة بيانها ووضوح حجتها، فكان دفعها قوياً فعلاً؛ في حين كان دفع المشركين ضعيفاً سلبياً.

٢ - التدافع في مقصد حفظ النفس :

اعتبر الإسلام النفس البشرية مصونة، لا يجوز إزهاقها إلا بحقها الذي حدده الشرع وبيّنه، واعتبر ذلك أصلاً من حيث الوجود، وهذا كان هو «الدفع» في العهد المكي.

استمر هذا الدفع على حاله في العهد المدني، لكن نزلت بخصوصه تشريعات من حيث العدم، وهي تشريعات القصاص والفدية والعفو كل بحسبها، ولم يكن للمشركين إمكان لمقابلة هذا الدفع؛ ذلك أن «الدفع» الإلهي قد أحكم هذا المقصد من حيث الوجود بدائرة شاملة ثم بدوائر خاصة. أما الشاملة فقوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١] ، وأما الدوائر الخاصة فمنها قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١] ، وقوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] ، ومنها قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨ - ٩] ، قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨ - ٥٩] .

٣ - التدافع في مقاصد حفظ العرض والعقل والمال :

ما نقوله في ذلك هو على منوال ما ذكرناه نفسه في المقصدين السابقين،

ونترك الخوض في ذلك لتنشيط روح البحث لدى القارئ.

التدافع في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

معظمه قد دخل في المقاصد الخمسة، ولكن نودّ إضافة بعض الخصوصيات بهذا الشأن:

١ - إن التدافع على مستوى العقائد لا يبطل الحق الأصلي على مستوى المقاصد، قال - تعالى -: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١]، قال - تعالى -: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]، وقال - تعالى -: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْ دَيْدِكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، ويبيّن الله - تعالى - أن مرتبة هذا المقصد تأتي مباشرة بعد مقصد توحيد الله تعالى، قال - تعالى -: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

٢ - إن بعض المقاصد تأخذ طابع التعميم في الأمر والنهي، وطرحها بهذا الأسلوب في طريقة «الدفع» يجعل أمر رد دفعها من قبل المشركين غير وارد أو مستحيلاً؛ من ذلك قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، فلا يستطيع المشركون القول: بل نريد غشيان الفواحش! وإن كانوا يغشونها، فإن ذلك مسيء لقائله عقلاً وعرفاً. نلاحظ هنا أن عموم الآية ما أبقى خاصاً؛ لأنها تناولت عموم المخاطبين دون ربطها بالعقيدة من حيث الامتثال، وإن كانت الآية ارتبطت بالعقيدة من حيث جهة الأمر وجهة السياق (راجع الآية كاملة)، ولأنها تناولت الظاهر والباطن؛ فماذا بقي؟!

٣ - إن حفظ حقوق المستضعفين مسؤولية جماعية، ومن ثمّ فهو من مقاصد الدفع التي تقع في دائرة الامتثال العام، قال - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، فمن دفع بضدها ظهر ظلمه وبان جوره.

٤ - إن تعزيز الأمن الاجتماعي مقصود بذاته ، وإن انتهاك ذلك يؤدي إلى شيوع الاستغلال وأكل المال بالباطل ، قال - تعالى - : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام : ١٥٢] ، وهذا دفع لما كان عليه المشركون الذين فضح الله - تعالى - حالهم فقال : ﴿ وَيَلْ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين : ١ - ٣] .

٥ - إن الكلمة مسئولية ، وإن العدل في التلفظ بها مقصد شرعي ، وعلى ذلك فإن كل ما دعا إليه النبي ﷺ من أمر بمعروف أو نهى عن منكر هو عدل بذاته ، قال - تعالى - : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ [الأنعام : ١٥٢] ، وهو دفع نبوي لإشاعة الصدق ونشر الحق ، وبما أن المشركين رفضوا الاستجابة لدعوة النبي ﷺ ؛ فرفضهم ذلك وردهم له هو دفع شركي لإشاعة الكذب ونشر الباطل (قارن ذلك بما عليه أصحاب دعوات العولمة اليوم) .

٦ - من تميز بالإيمان دخل في دائرة الجماعة المسلمة بغض النظر عن حاله الاجتماعي أو انتمائه العرقي ، وإن الإيمان هو اللحمة التي تجمعهم ، وإن التمايز الطبقي هو عرف جاهلي ، دفع الإسلام بضده ، قال - تعالى - : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الكهف : ٢٨] ، فضمت هذه الجماعة بلالاً الحبشي وصهيياً الرومي ثم سلمان الفارسي فيما بعد (في العهد المدني) ، كما انتظمت الأبيض والأسود والغني والفقير والحر والعبد والرجل والمرأة والكهل والفتى . هذه المجموعة - بهذه التشكيلة - هي التي تجسّد فيها الواقع الفعلي لتطبيقات الأمر والنهي ، فكانت تمثل حالة الدفع الإيجابي ، وكان المجتمع الشركي يمثل حالة الدفع المضاد .

نلاحظ فيما ذكرناه في الأمور الستة السالفة : أن الدفع النبوي كان باتجاه مقصد «الخير» ، وأن الدفع الشركي كان في اتجاه مقصد «الشر» ، فهو «تدافع تام» في العموم ؛ إذ لا يخلو بعض أفراد المشركين من مقصد الخير ، لكننا هنا نريد

تسجيل الحالة الغالبة التي تُعدُّ سمة عامة وظاهرة .

إن العلماء والدعاة والجماعات الإسلامية مدعوون اليوم للنظر ملياً في سمات التدافع في منظومة المقاصد، سواء من حيث هي، أو من حيث طريقة عرضها بسمتها العالمي، إزاء منظومة المقاصد التي تطرحها العولمة المعاصرة .

ثالثاً: تدافع الوسائل في العهد المكي:

مع تضاد العقائد وتعارض المقاصد بين المؤمنين والمشرّكين؛ كان لا بد أن يتدافع الطرفان، وأن يتمخض ذلك عن استخدام كل منهما لما يملكه من وسائل لتدعيم موقفه، والفرق بينهما :

١ - أن الوسائل النبوية استخدمت في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وأن الوسائل الشركية استخدمت في سبيل تثبيت الباطل والدفاع عنه وإزهاق الحق وفضّ الناس عنه .

٢ - أن الوسائل النبوية تقيدت اختياراتها بدائرة المشروعية؛ في حين كانت الوسائل الشركية مفتوحة الاختيارات، آخذة بمبدأ الغاية تسوّغ الوسيلة أو الوسيلة .

٣ - أن القائمين على تنفيذ الوسائل النبوية (أي المؤمنين) عددهم قليل؛ بينما القائمون على تنفيذ الوسائل الشركية عددهم كبير، بل هم سكان مكة أجمعون، ما عدا من آمن .

٤ - أن معظم منفذي الوسائل النبوية كانوا من المستضعفين؛ بينما منفذو الوسائل الشركية كانوا هم أصحاب السلطة، إنهم الملأ من قريش، ثم عامة قريش من ورائهم .

٥ - تمخض عن ذلك أن الإمكانيات المتاحة للوسائل النبوية ضيقة جداً؛ بينما الإمكانيات الشركية المقابلة واسعة جداً .

وبناءً على ما ذكرناه؛ فإن من المتوقع منطقياً:

- ١ - أن يكون وضع «الدفع» النبوي في حالة «دفاع»؛ أي رد فعل .
 - ٢ - أن يكون وضع «الدفع» الشرطي في حالة «هجوم»؛ أي المبادرة بالفعل .
- لكن الذي حصل كان على عكس ذلك في أغلبه - كما سيأتي -، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن القيادة النبوية الحكيمة استطاعت أن توظف تلك الإمكانيات الضعيفة توظيفاً صحيحاً في أتون «المدافعة»، وأن تستخرج من التفاعل الإيماني أقصى طاقاته المتوهجة في نسيج أفرادها، ومعادلة ذلك هي:
- أقصى الطاقة الإيمانية + توظيف صحيح لها = أفضل النتائج المشروعة .
- وتتضمن أقصى الطاقة الإيمانية ثلاثة عناصر؛ هي:

- ١ - الثقة المطلقة بوعد الله ونصره .
 - ٢ - الصبر على مشاق الدعوة وطبيعة المواجهة .
 - ٣ - الاستعداد التام والدائم للبذل - بأنواعه - في سبيل الله .
- وهي نفسها التي ذكرناها في موضوع «الوسائل» عند الحديث عن الدوائر المحدودة .

وأما التوظيف الصحيح لهذه الطاقات الإيمانية فيتضمن:

- ١ - قيادة واعية وحازمة .
 - ٢ - العلم بمكونات ساحة الصراع (على مستوى الكليات والجزئيات) .
 - ٣ - الأخذ بزمام المبادرة .
 - ٤ - استنفاد الجهد في الأخذ بالأسباب المشروعة (المادية والمعنوية) .
- نلاحظ أن مكونات «التوظيف» المذكورة أخذ بها المشاركون كذلك، ولكنهم وظّفوها لخدمة الباطل، مع ملاحظة أن كلمة «المشروعة» لا معنى لها عندهم .

ضمن حدود هذه المقدمة التي تضمنت القواعد؛ فإنني سأسوق أمثلة على أهم محطات «التدافع» في «الوسائل» في العهد المكي، وسأؤجل الكلام على إسقاطات هذه القواعد على الأمثلة المختارة إلى ما بعد سوقها:

المثال الأول: من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما -: «لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]؛ خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه! فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. قال أبو لهب: تباً لك، ما جمعتنا إلا لهذا؟! ثم قام، فنزلت ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْبَى لَهُبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]»^(١).

المثال الثاني: من حديث عقيل بن أبي طالب في ذكر طلب قريش منع الرسول ﷺ من غشيانهم ناديهم، وفيه: «فحلّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: ترون هذه الشمس! قالوا: نعم! قال: فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشعلوا منها بشعلة»^(٢).

المثال الثالث: من حديث ربيعة بن عباد الديلي، وكان جاهلياً ثم أسلم، قال: (رأيت رسول الله ﷺ بصر عيني بسوق ذي المجاز يقول: «يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، ويدخل في فجاجها والناس متقصفون عليه، فما رأيت أحداً يقول شيئاً، وهو لا يسكت يقول: «يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، إلا أن وراءه رجلاً أحول وضيء الوجه ذا غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب . . .) الحديث، وفي رواية أخرى قال: (إني لمع أبي، رجل شاب، أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل، وراءه رجل أحول وضيء ذو جمّة، يقف رسول الله ﷺ على القبيلة يقول: «يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، أمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تصدقوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به . . .») الحديث^(٣).

(١) فتح الباري، ابن حجر (٨ / ٧٣٧)، رقم ٤٩٧١، صحيح مسلم، (١ / ١٩٤)، رقم ٢٠٨.

(٢) رواه أبو يعلى بإسناد صحيح، والمطالب العالية، ابن حجر، رقم ٤٣٧٨.

(٣) مسند أحمد، (٣ / ٤٩٢).